

الفصل الأول

الأنثروبولوجيا والثقافة والتربية

معنى الأنثروبولوجيا

الأنثروبولوجيا هي دراسة الإنسان وطرق معيشته . ولهذا العلم فرعان أساسيان : الأنثروبولوجيا الطبيعية التي تقتضى أثر تطور الكائن الحى البشرى وتكيفه للبيئات المختلفة ، والأنثروبولوجيا الثقافية التي تدرس الثقافات الحية والمندثرة . وتتضمن الأنثروبولوجيا الثقافية فى أوسع معنى لها الدراسات اللغوية (دراسة أشكال لغة الحديث) وعلم الآثار (دراسة الثقافات المندثرة) ، والأنثولوجيا (علم الأجناس البشرية) وهى دراسة الثقافات الحية أو تلك الثقافات التي يمكن ملاحظتها بطريقة مباشرة^(١) ومهمتنا هى بيان العلاقة بين التربية والأنثروبولوجيا الثقافية بهذا المعنى الأخير .

ولقد صارت الأنثروبولوجيا علماً منذ حوالى قرن مضى من خلال اختصار الأفكار التي أثارها الكشف والآثار والجيولوجيا، وأهم من ذلك كله الدارونية . ولقد اعتبر الأنثروبولوجيون الإنجليز والأمريكيون الأوائل وهم تحت تأثير مفهوم التطور الحيوى من أمثال إدوارد بورنت تايلور ولويس هنرى مورجان جميع الثقافات كمراحل على طريق عام وحيد موؤد إلى مجتمعات أوربا وأمريكا الصناعية . فمورجان مثلاً حدد ثلاثة أطوار ضرورية للنمو الثقافى — هى الممجية والبربرية والحضارية ، بما تتضمنه من مراحل فرعية مناسبة .

وفي مقابل ذلك على القارة الأوروبية نجد أن « مدرسة الانتشار الثقافي » قد اعتقدت أن الثقافات لم تكن نتيجة نمو متواز مستقل بل كانت نتيجة انتشار اختراعات من مراكز ثقافية قليلة . على أن كلتا المدرستين بامتدادهما النظرى الواسع وبزعمهما القائل بالتعدد المتزايد فى الثقافة بدرجة متكافئة مع التقدم الشامل قد أحدثت رد فعل لا مناص منه . ولقد استحدث كل من أميل دوركايم بأوروبا وفراز بوس بأمريكا وبرونسلو مالىنوفسكى بانجلترا نزعة تجريبية أنثروبولوجية مستبدلين بدراسة الإنسانية ككل الدراسة المستأينة لثقافات بالذات . فالينوفسكى مثلاً قد أرسى دعائم المدرسة الوظيفية التى تأتت إلى حد بعيد عن الدراسة التقليدية لتاريخ الثقافات بقصد شرح كل جانب من جوانب الثقافة فى ضوء مساهمته فى الكل فى لحظة معينة^(٢) .

وعلى الرغم من أن النزعة الوظيفية غير التاريخية قد استولت على الأنثروبولوجيا الإنجليزية ، فإن النسبية التاريخية لدى « بوس » قد أثرت فى معظم الأنثروبولوجيين الأمريكين وبخاصة إدوارد ساير وروث بنيدىكت ، وملفيل ج. هيرسكوفيتس^(٣) . وفى عام ١٩٣٠ حدث اتساع وتعميق بفضل اهتمام جديد مهد له روث بنيدىكت بمفهوم الثقافات

ككليات ، وبينما أقام « بوس » الاعتبار الأول للأجزاء الفردية للثقافات المختلفة ، فإن بعضاً من أتباعه حولوا انتباههم إلى الأنماط أو الأشكال الأساسية للأجزاء التى تجعل أى ثقافة كلا وظيفياً . ومنذ ذلك الوقت صار التجديد الرئيسى هو دراسة الثقافة والشخصية أعنى العملية التى تستوعب الثقافة وتعديل بواسطتها على يد الشخص باعتبارها فرداً - وهذا اتجاه عمل على التخفيف من ميل الأنثروبولوجى إلى تركيز اهتمامه على الثقافة فى حد ذاتها وليس الاهتمام بالأفراد الذين يجعلونها أمراً ممكناً^(٤)

وعلى الرغم من أن الأنثروبولوجيا تعتبر من أحدث العلوم الاجتماعية

فإنها تتفوق عليها جميعاً في امتداد مادة موضوعها وفي المنهج الذي تستعين به . وبينما يدرس العلماء الآخرون جوانب معينة من الثقافة ، فإن الأنثروبولوجي ينشد رد جميع الجوانب إلى الثقافة ككل ، وبينما يركز أولئك العلماء على بعض ثقافات معينة متقدمة للغرب الصناعي ، فإن الأنثروبولوجي يولى وجهه إلى جميع الثقافات الماضية والحاضرة ، البدائية والمتحضرة ، وبينما أولئك العلماء يأخذون في اعتبارهم امتدادات معينة في الماضي ، فإن الأنثروبولوجي يجعل في مجاله جميع تاريخ الجنس البشري . وفوق كل شيء فإن الأنثروبولوجي يوقفنا على التباين التام بين الثقافات ، وعلى التأثير العميق للتكيف الثقافي على السلوك الإنساني والشخصية الإنسانية . وهو يظهرنا على المدى البعيد أو المدى القصير الذي يمكن أن يصل إليه التغيير في الطبيعة الإنسانية .

على أن هذا المدى الواسع ليس دليلاً فقط على القوة ، بل وأيضاً على الضعف ، ذلك أنه يجعل الأنثروبولوجيا أقل العلوم ترتيباً ، دون أن يكون لها محور مقبول لنظرية تسمح بتنبؤ واسع ودقيق . وأكثر من هذا فإن التركيز على الثقافة التي تعد المصدر الرئيسي لهذا الاتساع ، له أيضاً نقطة ضعف أخرى . فبما أن جميع الخبرات الثقافية ينبغي أن تكون شركة فيما بين شخصين على الأقل وهي شركة كقاعدة عامة بين كثيرين ، فإن الأنثروبولوجيا تفهم المجموعات أكثر من تفهمها للأشخاص . وهي لاتذهب إلى غير بعيد في الطبيعة الإنسانية الفردية ، ولا تكاد تدخل في نطاق اللاشعور^(٥) ولكي نفهم أعماقاً كهذه ينبغي علينا أن نولى أنظارنا إلى مجال آخر — إلى الدين وعلم النفس والمسرحية والرواية . إذن فالأنثروبولوجيا تسهم في دراسة الإنسان ، ولكنها لا تقوم بتصنيفه تحت مبدأ عام .^(٦)

نحن نقصد بالثقافة في حد ذاتها جميع طرائق الحياة التي طورها الناس في المجتمع . ونعني بلفظ ثقافة معينة طريقة الحياة المشتركة برمتها لدى شعب بالذات ، متضمنة طرقهم في التفكير والتصرف والشعور التي يعبر عنها مثلاً في الدين والقانون واللغة والفن والعرف ، وكذلك في المنتجات المادية مثل المنازل والملابس والأدوات . ومن وجهة نظر أخرى فإننا قد نتناول الثقافة كسلوك متعلم مشترك (أفكار وتصرفات ومشاعر) لدى شعب معين مضافاً إليه منتجاتهم المصنوعة — ونعني بكلمة متعلم أن هذا السلوك ينتقل بطريقة اجتماعية وليس بطريقة وراثية ، ونعني بأنه مشترك أنه يمارس إما بواسطة كل الشعب أو بجزء معين منه .

وثقافتنا هي الطريقة التي نأكل وننام بها ، وهي الطريقة التي بها نغتسل ونرتدى ملابسنا ونذهب إلى العمل . إنها اللغة التي نتكلم بها والقيم والمعتقدات التي نستمسك بها . إنها السلع والخدمات التي نشترىها والطريقة التي نشترىها بها . إنها الطريقة التي نقابل بها أصدقاءنا والغرباء عنا ، والطريقة التي نحكم بها أطفالنا والطريقة التي يستجيبون بها . إنها وسائل الانتقال التي نستخدمها والترفيه الذي نستمتع به .

إذن فكيف السبيل إلى التمييز بين الثقافة والمجتمع ؟ إن المجتمع هو شعب متمركز في مكان معين يتعاون بعضه مع بعض عبر حقبة من الزمن من أجل أهداف معينة ، والثقافة هي طريقة هذا المجتمع في الحياة ، أو هي تلك الأشياء التي يفكر بها أعضاؤه ويحسون بها ويضطلعون بها . وكما يقول فليكس كيسنج: يمكن أن نحدد الأمر بغاية البساطة بالقول بأن « الثقافة » تركز البؤرة على عادات الشعب ، بينما يركز « المجتمع » على الشعب الذي يشارك في العادات^(٧) . نعم إن الحيوانات والحشرات تعيش هي أيضاً في مجتمعات ، بل إن بعض الحيوانات مثل قطعان الابل لها

«أمر» و «قادة» . ولكن سلوكاً اجتماعياً كهذا هو سلوك غريزي وليس سلوكاً مكتسباً ، ومن ثم فإنه لم يفض إلى قيام ثقافة .

وهل للمجتمع الواحد حدود مشتركة مع ثقافة واحدة ؟ ربما يكون هذا صحيحاً بشرط أن يكون المجتمع صغيراً ومنعزلاً ومستقراً . على أن معظم المجتمعات الكبيرة متعددة الثقافات أو تقول بأن هناك أكثر من حقيقة مطلقة واحدة . وهي تنحو إلى اتخاذ ثقافات فرعية متعددة أو كثيرة . فالولايات المتحدة على سبيل المثال تضم الثقافات الفرعية للهنود والمكسيكيين والبولنديين والقوات المسلحة والمراهقين وأصحاب موسيقى الجاز وغير ذلك من ثقافات فرعية .

مضمون الثقافة :

من الممكن ترتيب مظاهر الثقافة بطرق متعددة . فهي مثلاً يمكن أن تصنف كمنشط مكتسبة ومساهمة ، وذلك مثل قيادة السيارات وتحديد موعد للقاء وارتياح المسرح ، كما يمكن أن تصنف كأفكار مكتسبة ومساهمة كالاعتقاد في الله وكرهية الشيوعية ، وكتنجات مساهمة ومكتسبة اجتماعياً كالسيارات وناطحات السحاب . ولقد تصنف هذه الظواهر أيضاً إلى تكنولوجيا (الوسائل التي بواسطتها يعالج العالم المادى) وإلى تنظيم اجتماعى (المناشط والمؤسسات المتضمنة في سلوك أفرادها بعضهم مع بعض) وإلى أيديولوجية (المعرفة والقيم والمعتقدات التي تتضمنها الثقافة)^(١) . ومن أحسن التصنيفات المعروفة التصنيف الثلاثى لـ رالف لينتون إلى عموميات وخصوصيات وبدائل^(٢) .

أما العموميات فهي جميع الأفكار والتصرفات والمشاعر والنتاجات الصناعية المشتركة بين جميع الراشدين بأحد المجتمعات ، وهي تتضمن إلى

جانب أشياء أخرى اللغة والإسكان وعلاقات القرابة والأزياء والمعتقدات والقيم المتباينة . أما الخصوصيات فهي تلك الظواهر التي لا يشارك فيها سوى أفراد من مجموعات اجتماعية متميزة معينة، وذلك مثل الصناعات والمهن ذات المهارة . أما البدائل فهي تلك التي لا يشارك فيها إلا عدد محدود من الأفراد كالقساوسة أو الرسامين أو الفلاسفة .

ولكن الثقافة أكثر من مجرد مجموع أجزائها . إنها أيضاً الطريقة التي تنظم تلك الأجزاء وفقها لكي تشكل كياناً كلياً ، فكما أن المباني المتعددة يمكن أن تصنع من نفس الخامات ، ومع هذا فإنها تختلف في البنيان والوظيفة . كذلك قد تشترك ثقافات متعددة في بعض العناصر المتشابهة ومع ذلك فكل منها قد تنظمها بطريقة فريدة ، وعلى هذا فلنكن نفهم لإحدى الثقافات علينا ألا نقتصر على استيعاب أجزائها بل وأيضاً استيعاب البنيان الذي يضم تلك الأجزاء .

وتبعاً للأنثروبولوجيين فإن هذا البنيان يتشكل من هيئات أساسية معينة تستجيب بشكل عام لاتجاهات ومعتقدات الثقافة الرئيسية . ولقد نشد بعض الأنثروبولوجيين تمييز كل ثقافة بهيئة تنفرد بها ، فروث بينيديكت مثلاً يقابل بين المزاج الشعبي الديونيسي (أو هيئته) لدى الهنود بالسهول الغربية وهم الذين يقدرون قيمة الانغماس في الشراب ، وبين المزاج الشعبي الأبولوجي لدى هنود بويبلو الذين يقدررون قيمة الاعتدال في هذا الشأن^(١٠) على أن معظم الأنثروبولوجيين يفضلون العثور على عدد الهياث ، على الأقل بالمجتمعات الأكثر تعقداً . ولقد تكون بعض الهياث مسيطرة بينما قد تكون هيئات أخرى مساندة أو حتى متصارعة^(١١) .

وكل ثقافة وقد انتظمت وفق هيئات كهذه فإنها تشكل نظاماً مستقلاً

يتم الإحساس باتساقه أكثر من رسمه ذهنياً . فهذه الهياث تتخلل جميع قطاعات الثقافة ، وكما تلاحظ روث بينيديكت « أن جميع السلوك المتنوع

الموجه نحو كسب العيش والزواج والحروب وعبادة الآلهة يتشكل وفق أنماط متسقة تبعاً لدروب لاشعورية للاختيار تنطور بعمق في نطاق الثقافة^(١٢) ويظهر أوبلر مثلاً أن بين تشيريكاهوا أباش فإن « الفكرة الرئيسية » المتعلقة بسيطرة الرجل تبدو أنها امتداد للمعتقدات كالاعتقاد القائل بأن الجنين المفعم بالحوية سيكون ولداً والاعتقاد بأن النساء وهن أقل اتزاناً من الرجال أكثر ميلاً لإحداث النزاع بالبيت . ويعبر عن ذلك أيضاً في بعض العادات كقصر مجالس الشورى بالقبيلة على الرجال ، وفي إسناد أماكن خاصة محجوزة بالولائم للرجال ، مع السماح للنساء بالأكل حيناً ينسنى هن ذلك^(١٣) .

وإلى جانب أن الثقافة تتسم بالترتيب فإنها أيضاً انتقائية فهي تستحدث وتتكيف تبعاً لتشكلاتها التي تنطوي عليها . ولقد أجاد كليد كوكهون ووليم هـ . كيلي التعبير عن هذه النقطة بقولهما :

كما أن ما يقدم عليه أحد الأفراد من اختيار في فترة حساسة من حياته يدفع به في اتجاهات معينة لباقي حياته ، كذلك فإن النزعات الأصلية والاتجاهات « والاهتمامات » التي تتخذ صفة الرسمية في خطة حياة مجتمع ما تم تكرينه حديثاً تميل إلى توجيه إحدى الثقافات تبعاً لبعض الاتجاهات المعارضة لاتجاهات أخرى . والاختلافات التالية في الثقافة — سواء تلك التي تنشأ داخلياً أم تلك التي تعد استجابة للاحتكاك بالثقافات الأخرى أو التغيرات في البيئة الطبيعية — لا تقع عشوائياً . فهناك على نحو ما على الأقل تنوع ثقافي خاضع لنظام مقرر إلى جانب ذلك التنوع البيولوجي الخاضع لنظام مقرر أيضاً^(١٤) .

أما المصطلح الأنثروبولوجي الخاص بدرجة الوحدة المتأتية بواسطة إحدى الثقافات فهو التكامل . فكل ثقافة تضم عدة أنماط مختلفة من السلوك . فالثقافة الأمريكية مثلاً تشتمل على أنماط سلوكية مثل « تفريش»

الأسنان ومشاهدة التلفزيون ولعب الباسبول وانتخاب رئيس الجمهورية ، وتكون إحدى الثقافات متكاملة إلى الحد الذي تكون أنماط السلوك بها في علاقة متبادلة بعضها مع بعض ، وكلما كانت الثقافة أكثر تكاملا كلما كانت هذه الأنماط أكثر تعزيزاً بعضها لبعض . وكلما كانت الثقافة أقل تكاملا كلما كانت تعمل بصورة أكثر استقلالاً . وتشكل الأنماط المترابطة للسلوك أنماطاً أكثر شمولاً ، أو نظماً فرعية في نطاق النظام الكلي للثقافة . وبذا فإن مثل تلك الأنماط السلوكية كتعلم القراءة ورفع أصبع التلميذ بالفصل وتصحيح أوراق الإجابة والالتحاق بمعاهد المعلمين إنما تنتمي جميعاً إلى نظام فرعي للتربية .

وفي كل ثقافة نجد أن بعض النظم الفرعية أكثر أهمية من سواها . وتعرف أكثر النظم الفرعية أهمية لدى الأنثروبولوجيين بالبوثرات FOCI والبوثرة هي مجال ذو اهتمام واستحواذ على أفراد الثقافة . إنها مجموعة من أنماط السلوك تستوعب كثيراً من وقتهم وطاقاتهم . وكلما كانت الثقافة أكثر تكاملاً ، زادت سيطرة البوثرات على أنماط سلوكها وزادت هذه البوثرات في ترابطها بعضها ببعض . والعكس صحيح بالنسبة للثقافات الأقل تكاملاً^(١٥) .

فالهوبي مثلاً ثقافة متكاملة إلى حد بعيد . فبين الهوبي هناك بوثرتان — المشاركة بالحفلات والحياة الاجتماعية — وهي تشتمل بصورة ما على معظم مناسط الثقافة . وتشتمل المشاركة الاحتفالية على مناسط مختلفة معينة مثل الجماعات السرية وترتيبات الزواج والطقوس ، وعبادة الكاشينا (كائنات روحية يجعلها الهوبي) والبحث عن الرزق . ولفهم هذه المناشط ، علينا أن نقف على كيفية ترابطها في نطاق بوثرة المشاركة الاحتفالية^(١٦) .

أما الثقافة الأمريكية فأنها أقل تكاملاً . فلو أن الثقافة الأمريكية كانت

أكثر مدى من التكامل ، إذن لكان المنهج قد تكيف بطريقة مباشرة أكثر مما هو عليه لمقابلة حاجات الصناعة ، ولكانت الاهتمامات الصناعية قد أخذت يزمام المبادرة في رعاية التطورات التربوية أكثر مما تفعل اليوم . والواقع أن المجتمع الجماعي هو بالطبع أكثر تكاملاً من المجتمع الديمقراطي ، لأنه يستطيع أن يفرض نظاماً أكثر اتساقاً على ثقافته . وهكذا نجد في روسيا أن التربية تحت اسم « تنوع الفنون التطبيقية البوليتكنيكية » قد ارتبط ارتباطاً مباشراً بحاجات الصناعة أكثر مما عليه الحال بأمريكا^(١٧) .

وكما كانت الثقافة أكثر انغلاقاً ، كانت مقاومتها لغيرها أكبر ، إذ أنه حتى ما يبدو فيها من سمات عارضة إنما يكون متأسلاً بشكل مباشر في بورتها أو تشكلاتها الموجهة ، فإذا ما أقحم التغير عليها إقحاماً ، فإن الثقافة قد تتأثر بشدة بل وقد تصل إلى حد الانهيار^(١٨) . فثقافة ساموا مثلاً قد تمزقت بادخال المنازل ذات الطابع الغربي التي افتقرت إلى الأعمدة التي تحدد أماكن جلوس الأشخاص ذوي المراتب المختلفة^(١٩) . ثم هناك حالة قبيلة الاستراليين الشماليين الذين استخدم رجالهم الفئوس الحجرية لقتل الحيوانات ولقطع خشب الحريق . فلقد كانت الفأس ملكيتهم التي يعززون بها ورمزاً لرجولتهم . بيد أن المبشرين قد أدخلوا السواطير الصلبة وأعطوها لكل من الرجال والنساء على السواء . ولقد أشاعوا القوضى دون قصد من جانبهم في نمط الجنس والعلاقات العمرية ، وحطمووا الدوافع التي أدت بالأطفال والمراهقين إلى طاعة ذويهم من كبار الذكور ، وحرمان الرجال من احترام الذات . فلقد تمكنت النساء من استخدام السواطير . فالقبيلة قد انهارت تقريباً بفعل من أفعال الشفقة^(٢٠) .

وعلى عكس ذلك كلما كانت الثقافة أكثر تكاملاً ومرونة في نفس الوقت ، فإنها تكون أكثر انتحاء إلى استيعاب مجموعة من المستحدثات دون أن تكون مهددة بطريق مباشر في أسسها . وهكذا فإن الثقافات المستمدة

من مصادر مختلفة بالغرب قد تلقت الجبر عن العرب ، والطباعة عن الصين والتبغ عن أمريكا كما تلقت ما لا عداد له من الابتكارات المختلفة من ثقافات مختلفة عبر العالم .

على أنه لا توجد ثقافة واحدة متكاملة تماماً . ذلك أن التكامل كما يقول كروبير « هو شرط مثالي اخترعه قليل من الانثروبولوجيين وليس متمكناً في التاريخ^(٢١) » . ومعظم مجالات الثقافة تحظى بدرجة من الاستقلال ، ولكن الكثير في الواقع يختلف بدرجة لا يستهان بها من ثقافة إلى أخرى وفي نطاق نفس الثقافة من مجال إلى مجال آخر . فثلا حتى في أكثر الثقافات مرونة فإن النحوى يظل ثابتاً تقريباً ، بينما تتغير معاني المفردات اللغوية باستمرار .

وبما أن التكامل لا يكون كاملاً على الإطلاق ولما كانت الثقافة لا تخضع للتخطيط الذهني بل هي نتاج لتاريخ طويل ومعقد ، فإن كل ثقافة تتضمن بعض التناقضات والنقائص . فثقافتنا مثلاً تستخدم موازين ومقاييس غير عشرية ، والهجاء في اللغة على خلاف النطق بها ، وكلا الاستعمالين معارض لاهتمامنا بالفعالية .

بعض خصائص الثقافة :

الثقافة عضوية وفوق عضوية في نفس الوقت . فهي عضوية في أنها متأصلة بصفة جوهرية في الكائن الحي الإنساني . ذلك أنه بدون أن يعمل الناس ويفكروا ويحسوا ويقوموا بصنع المنتجات الصناعية ، لا يمكن قيام ثقافة على الإطلاق . والثقافة فوق عضوية بمعنى أنها تعمر بعد أجيال بعينها ، وبمعنى أن مضمونها هو إلى حد أبعد نتاج للمجتمع الإنساني أكثر من أن يكون نتاجاً لبيولوجية الإنسان .

والثقافة علنية ومستخفية في نفس الوقت . فهي علنية في تلك الأعمال

والمنتجات الصناعية كالمنازل والملابس وأشكال الحديث التي يمكن مشاهدتها بطريق مباشر . وهى مستخفية فى تلك الجوانب كموقفها المتضمن تجاه الطبيعة وعالم الروح وهو ما يجب استنتاجه مما يقوله أفراد المجتمع ويفعلونه .

والثقافة واضحة ومضمرة . وتتكون الثقافة الصريحة من جميع الأساليب السلوكية كقيادة إحدى السيارات وتكوين علاقة حب والمشاركة فى لعبة الباسبول ، تلك التى يمكن أن يصفها بسهولة أولئك الذين يمارسونها . أما الثقافة المضمرة فإنها تتضمن تلك الأشياء التى يأخذها الناس على علانها تقريباً والتى لا يستطيعون تفسيرها بسهولة . فثلا جميع الراشدين العقلاء يستطيعون التحدث بلغة ثقافتهم ، ولكن قليلا منهم يستطيعون تفسير نحوها وبناء حملها بأى تفصيل .

والثقافة مثالية وواقعة . فالثقافة المثالية تشتمل على الطرق التى يعتقد الناس أن الواجب عليهم السلوك وفقها ، أو التى قد يرغبون فى إنتاجها أو التى يعتقدون أن من الواجب عليهم السلوك بمقتضاها . أما الثقافة الواقعة فإنها تشكل من سائرهم الفعل . وهكذا نجد أن المسيحية بالولايات المتحدة فى الوقت الحاضر مثالية أكثر منها واقعة . فكثير من الأمريكيين إذا ما سئلوا فإنهم يعلنون عن معتقد غامض فى الآخرة . ولكن قليلا منهم نسبياً يتخذون خطوات عملية فى حياتهم اليومية للاستعداد لها . وفى الثقافات التى تحتاج تغييراً سريعاً فإن الفاصل بين الثقافة المثالية والثقافة الواقعة أخذ بالتأكيد فى الاتساع ، ذلك أنه كقاعدة عامة نجد أن الظروف المتبدلة وبخاصة التكنولوجيا المتغيرة سرعان ما تفوق فى سرعتها المثل العليا . قارن بين مثلنا الأعلى المتعلق « بالفردية الفجة » وبين السيطرة الفعلية للاقتصاد بواسطة عدد قليل نسبياً من الشركات الكبيرة .

والثقافة ثابتة ولكنها دائماً متغيرة . والواقع أن كل صفة من هاتين الصفتين تستلزم منطقياً الصفة الأخرى ، ذلك أن التغير لا يمكن أن يقاس

إلا في مقابل العناصر التي تعد ثابتة نسبياً ، ولا يمكن قياس الثبات إلا في مقابل تلك العناصر التي تتغير بسرعة أكبر . وبعض الثقافات وبخاصة تلك الثقافات الخاصة بالغرب أكثر مرونة من غيرها ويمكن أن تتوافق مع درجة أكبر سرعة من التغير دون أن تصاب بالتحلل . وبالإضافة إلى هذا فإن إحدى الثقافات قد تكون أكثر تقبلاً للتغير في بعض الاعتبارات عنها في اعتبارات أخرى . ففي الثقافات الغربية فإن التكنولوجيا مثلاً تتغير بشكل أسرع من تغير القيم . ومع هذا فلا القيم ولا الإيديولوجية تظل ثابتة . وقليل من الأمريكيين مثلاً ما يزالون يتقبلون قصة الخلق بسفر التكوين لما وردت به حرفياً . وجميع الأنثروبولوجيين بوجه عام يؤكدون تحول الثقافة بشكل أساسي^(٢٢) ، على الرغم من أن قليلاً منهم مثل ليزلى هوايت وبعض التطوريين المحدثين يؤكدون مقاومة الثقافة للمحاولات المقصودة والمتصورة عقلياً لإحداث تغير ثقافي^(٢٣) .

وحتى هذه النقطة أكون قد لخصت معنى الثقافة ومضمونها وخصائصها العامة ، وأكون قد تقدمت بالقارئ إلى اللغة الأساسية كما هي في الواقع التي تنقل بواسطتها المعرفة الأنثروبولوجية . ولعلنا الآن نعمل مسحاً للعلاقة الضخمة القائمة فيما بين الأنثروبولوجيا والتربية .

التربية والأنثروبولوجيا:

تتضمن التربية بأوسع معنى لها كل عملية — باستثناء العملية التكوينية الوراثةية — تساعد في تشكيل عقل الشخص أو خلقه أو طاقته الجسمية . والتربية تستمر طوال الحياة وذلك لأننا ينبغي أن نتعلم طرقاً جديدة من التفكير والتصرف مع كل تغير رئيسي في حياتنا^(٢٤) . والتربية بمعنى أضيق هي غرس معلومات ومهارات واتجاهات معينة في كل جيل بواسطة بعض المؤسسات كالمدارس التي أنشئت لهذا الغرض . ومع هذا فلفظ تربية يعنى أيضاً ذلك الفرع المعرفي الأكاديمي (المشتغل على علم النفس وعلم الاجتماع

والتاريخ وفلسفة التربية) الذى يعتبر موضوعه هو التربية بالمعنى الثانى .

ويبدو أن الإنسان قد عرف دائماً أن الناشئة لا ينضجون ثقافياً ما لم نوقفهم على كيفية السبيل إلى ذلك . والأطفال يدركون أن أساليب الرشد يجب أن تكتسب عن طريق الكبار . ولقد اكتشف كل مجتمع أن نقل ثقافته لا يمكن أن يترك للمصادفة . فبفرض أن الطفل يستوعب هذه الثقافة من الخبرات التى لا عداد لها فى هذه الحياة اليومية . ومع هذا فإن اسيعاباً تلقائياً كهذا لا يمكن أن يضمن أنه يتلقى بدقة تلك العناصر الثقافية التى يعتقد المجتمع أن أفرادها يجب أن يحصلوا عليها إذا ما أريد لهم أن يستمروا به ويجددوا حيويته . ولذا فإن كل مجتمع يشرف على تربية أفراد . فكل واحد فى نقطة معينة من طفولته يربى بطريقة مقصودة على أن هذا لا يتم حتماً باحدى المدارس .

فالتربية إذن تنتمى إلى العملية العامة المعروفة باسم التثقيف الذى بواسطته ينخرط الشخص النامى فى طريقة الحياة بمجتمعه . ولفهم ديناميكيات التثقيف فى تأثيرها فى التربية ينبغى علينا أن نولى وجوهاً إلى الأنثروبولوجيا . ولعلنا نكتفى بمثال واحد . فالثقافات كما نعلم تختلف درجة عدم الاستمرار التى تفرضها بين الطفولة والنضج . ففى بعض الثقافات يكون التقدم إلى المراهقة ممهداً وغير مقطوع . ولكن فى بعضها الآخر كما هو الحال فى ثقافتنا يتطلب الأمر من المراهق أن يستكشف طريقه فى الحياة فجأة وما يترتب على ذلك من توتر وإجهاد . وتثير هذه المسألة أسئلة على جانب كبير من الأهمية أمام التربية . إلى أى حد يكون عدم الاستمرار محتوماً بالنسبة لكل شخص ينشأ فى مجتمع صناعى حديث ؟ وإلى أى حد يمكن التخفيف من ذلك ؟ وكيف يؤثر عدم الاستمرار فى دراسات المدرسة وطرائق التعليم بها ؟ .

ولكن التربية إذا ما نظر إليها كتعليم بالمدارس فإن ذلك لا يعدو أن يكون واحداً فقط من وسائط التثقيف - ونخص بالذكر الأسرة والكنيسة ، ومجموعة الأتراب ووسائل الاتصال الجماهيرية - و كل منها بقيمتها وأهدافها الخاصة . وبذا فعلى الرغم من أن المربي قد يريد صقل صفات معينة بالطفل ، مثل التفكير الواضح والحكم المستقل ، فإنه يجد نفسه قاصراً عن عمل ذلك لأن الواقع أن هناك وسائل أخرى قد تكون بسبيل صياغة الطفل بطريقة مختلفة^(٢٥) فالتليفزيون مثلاً ينشد من آن لآخر تقديم المعلومات ، ولكنه ينشد التسلية بصفة رئيسية ، فيهب الشعور أحياناً ، ويدأب على ترويح البضائع من خلال التلميح والتأكيد والإغراء . فهل يستطيع بمثل تلك الوسائل أن ينتج عقولاً صافية التفكير ومستقلة ؟ وإلى أى حد تستطيع المدرسة أن تتعاون مع وسائط التثقيف الأخرى ، وإلى أى حد يجب عليها أن تعارضها ؟ وإلى أى حد تتنازع هذه الوسائل الواحدة منها مع الأخرى ؟ وإلى أى حد تعد حلفاء مع المدرسة ؟ لكي نجيب عن هذه الأسئلة ولرسم السياسات المناسبة للمدرسة ، يجب على المربي أن يعرف طبيعة ومدى الوسائط التثقيفية . ولهذا ينبغي عليه أن يولى وجهه شطر الأنثروبولوجيا .

والتربية كقطاع واحد في الشبكة العظيمة للثقافة تستجيب للأحداث الواقعة في أجزاء أخرى من الثقافة وقد تؤثر في بعض الأحيان في هذه الأحداث ذاتها . وفي الثقافة الصناعية نجد العلم وتطبيقه في التكنولوجيا يمثل أداة كبيرة للتغيير . ونحن في العالم الغربي نعيش فيما أطلق عليه اسم الثورة الصناعية الثانية . فالثورة الصناعية الأولى تدور حول محور الآلة البخارية وآلة الغزل وبهما حلت الآلة محل العضلة . أما الثورة الصناعية الثانية فقد جمعت قوتها الدافعة منذ عام ١٩٤٥ على الرغم من أنها بدأت قبل ذلك خلال هذا القرن . فهذه الثورة التي تدور حول قوة الذرة والكيمياء والآلات الحاسبة والآلات ذاتية الحركة ، قد زادت إلى حد

بعيد من الطاقة التي نستطيع إنتاجها قد بدأت في إحلال الآلات محل الفكر البشرى وتحكمه .

وهذه الثورة أكثر بكثير من الثورة الأولى في اعتمادها على الحبير الفنى والحبير المهنى - أكثر من اعتمادها على الهاوى المثقف . لقد تأثرت في مدارسنا ومعاهدنا بعمق وذلك بتسليمها التخصص الفنى ، المهنى . وكذا فان مجتمعا مطرد الزيادة في التخصص يؤثر أيضاً في مهنة التعليم ، فلقد خلق أعداداً متزايدة من الإداريين والمرشدين النفسانيين والباحثين والمختبرين وغير ذلك من خبراء . والتربية بدورها ترفع مستوى ودرجة التغير في العلم والتكنولوجيا وذلك بانتاج علماء ، وتكنولوجيايين مدرّبين إلى درجات أعلى وأعلى باستمرار .

وفى مجتمع كهذا - معقد ومتخصص ومتغير بسرعة خاطفة - فإن مهمة المدرسة في نقل الثقافة محفوفة أكثر فأكثر بالمشكلات . فمفهم المعرفة مترام الأطراف بالفعل ، ودائب فى النمو ، وليس هناك اتفاق عام على ما ينبغى على التلميذ أن يتعلمه . وفى نفس الوقت فان هذه المعرفة آخذة باستمرار فى التخصص ، مع ما يتأتى عن هذا من أن على التلميذ أن يتعلم أكثر ، سواء لامتلاك ناصية تخصصه ، أم لاستيعاب الثقافة ككل . وأكثر من هذا فان التغير السريع المستمر يجعل من الصعب التنبؤ بما يجب على الجيل القادم أن يعرف . وبذا فكلما زاد عدد الأشياء التى يجب تعلمها ، فاما أن الزمن المقتضى فى تعلم كل شئ من تلك الأشياء يجب أن ينقص ، وإما أن تستحدث طرائق أفضل فى التعلم والتدريس أو أن يؤخذ بكلا الحليين . بيد أن هناك شكاً قليلاً فى أنه على الرغم من مدى طرائق التدريس التى وضعت بالفعل لإيصال مختلف المواد ، فان الإنسان الحديث آخذ فى تجميع المعرفة بدرجة أسرع من اختراعه الطرائق لإيصالها . ويتطلب وضع طريقة جديدة فى إيصال المعرفة الجديدة إذا كان من

الواجب وضعها قيام مادة إضافية يجب تعلمها ، كما هو الحال في التعليم بالآلات (١٦).

إذن لكي نفهم ما يستطيع نظامنا المدرسي إنجازه والطرق التي تعمل العوامل الثقافية على إحباطها ، علينا أن نشاهد التربية في سياق الثقافة ككل . فهنا ينبغي على المربين والانثروبولوجيين أن يتضافروا ، وذلك لأنه كقاعدة عامة تعوز المربي معرفة الأنثروبولوجي بامتداد الثقافة وتفصيلاتها بينما نجد قلة من الأنثروبولوجيين يرغبون في أن يوجهوا انتباههم إلى الظاهرة الثقافية للتربية وحدها .

والأنثروبولوجي بوجه خاص يستطيع أن يقتنى أثر تلك الصراعات في الثقافة الأوسع التي تتخلل جميع الثقافات الفرعية للتربية والتي لا يدركها المربي الممارس للتربية بوجه عام . فالصراع بين القيم الأمريكية التقليدية وبين القيم الناشئة لمجتمع غني متدفق مثلاً إنما يسيطر على أعمال المدرس بما يترتب على ذلك من نتائج لم يستهدفها . فإذا كان علينا أن نضمن وصول التربية إلى أهدافها المعترف بها ، فأننا نكون بحاجة إلى أن نخبرنا الأنثروبولوجي أين تعوق الخصومات المعتملة جهود المدرس .

وبما أن المهمة الأولى للتربية هي الاستمرار بمنجزات الثقافة ، فهي تتخذ لذلك طابعاً تقليدياً . ومع ذلك فإلى الحد الذي تعد عنده الناشئة التكيف للأحداث المتوقعة بداخل وخارج الثقافة في نفس الوقت ، فإنها تمهد الطريق أمام التغير الثقافي . فهل تستطيع التربية أن تفعل أكثر من هذا ؟ وهل تستطيع أن تمرن الجيل الآتي ليس فقط على التكيف لتغيرات محددة في الثقافة ، بل وأيضاً أن تمرنه على استحداث تلك التغيرات ؟ ومرة أخرى لكي نجيب عن هذا السؤال المثير للجدل فإن علينا أن نحول إلى الانثروبولوجيا حتى نكتشف سلسلة كاملة من القوى تستحدثها الثقافة لكي تؤثر في نظامها التربوي . إن أية خطة معقولة لجعل المدرسة قوة

متقدمة لتغير ثقافى يجب أن تأخذ فى اعتبارها القوى التى تقف المدرسة مناهضة لها .

وتستطيع الانثروبولوجيا أيضاً أن تدعم التربية وذلك بدراسة المناهج التربوية للثقافات الأخرى سواء كانت بدائية أم حديثة . تمكن دراسة التربية فى الثقافات المضادة المرئى من أن يتعلم من خبرات الثقافات الأخرى وأن يدرس مدارس بطريقتة أكثر موضوعية . وعلى الرغم من أن المسألة تستدعى الانتظار لحين مشاهدة ما إذا كان من الممكن وضع نظام من الفئات يصلح للتطبيق على النظم التربوية بجميع الثقافات ، فلا بد من القيام مع ذلك بالمحاولة ^(٢٧) . فالمرئى ينبغى أن يتقدم بحرص . ذلك أن الثقافات بما أنها فريدة فان من الصعب مقارنتها . وأكثر من هذا فان فئات المقارنة يجب أن تكون اجتهادية طالما أن فئات أخرى تظهر بلا مناص .

والعلماء فى الوقت الحاضر مشغولون بسلسلة من دراسات الحالة المتعاقبة باحوامل الثقافية التى تعمل عملها فى سلسلة من المواقف التربوية ^(٢٨) . ومع هذا فعلى الرغم من أن بعض الإسهامات الجديرة بالملاحظة قد قدمت ، فان فحص تفاعل الثقافة والتربية قد بدأ حديثاً . أما ما إذا كان الوقت قد حان لدراسة شاملة للأنثروبولوجيا التربوية ، فانه ربما يكون موضوعاً جديلاً . فلقد بدأ بالفعل ثيودور براملد فى محاولة لوضع نظرية كهذه . فتصور تلك النظرية بوضخامة والتعبير عنها بشكل انطباعى توضح مع ذلك العملية التربوية التى تتفق بشكل أساسى مع فلسفة براملد التجديدية التى سوف أناقشها فيما بعد ^(٢٩) . ومن جهة أخرى فان جورج سبندلر يدعو إلى طريقة لنهم المسألة بصورة أكثر استقرائية . فهو يؤكد بالحجة أن المساهمة الرئيسية التى يمكن أن تقدمها الانثروبولوجيا للتربية هى أن تقدم فى وقت واحد مجموعة من المعلومات احققة والواقعية وذلك بتحليل جوانب مختلفة من العملية التربوية فى مجالها الاجتماعى الثقافى ^(٣٠) .

ومع هذا فان النظريات الخاصة والتجارب المنفصلة سوف لا تقدم في حد ذاتها فرعاً من المعرفة يسمى بالأنثروبولوجيا التربوية . ففي الأساس ينبغي أن تكون الأنثروبولوجيا التربوية دراسة منظمة ، وليست فقط ممارسة تربوية من وجهة النظر الثقافية ، بل وأيضاً في ضوء الفروض التي يقدمها الأنثروبولوجيون والفروض التي تعكسها الممارسات التربوية (٣١) .

فمثلاً يزعم معظم الأنثروبولوجيين العاملين في التربية أن المدرسة هي أنسب الصيغ المؤسسة التربوية وهو زعم يمكن قبوله إلى حد بعيد . ولكنهم بعد ذلك يتقدمون كما لو أن هذه حقيقة لا تقبل الجدل . فهل المدرسة حقاً « العنصر الحير في الثقافة » ؟ وكيف نعرف ذلك ما لم يكن لدينا نظام من القيم لتوجيهنا ؟ إن مجموعة من التجارب التي تزعم أن المدارس كانت أقل تأثيراً من غير ذلك من وسائط تربوية سوف تصطدم مع معظم المعلومات التي جمعت حتى الآن في الأنثروبولوجيا التربوية . وواضح أن هناك تكييفات خاصة بالقيم في مجال الأنثروبولوجيا تؤثر بشكل ملحوظ في علاقتها بالتربية . ولذا تصبح مسئولية المربين ليس فقط سبر أغوار هذه القيم ، بل وأيضاً تربيتها وربطها بالفكر التربوي والممارسة التربوية ككل .